العدد ٣٨/٢٠١٤

الأحد ٢١ أيلول

الأحد بعد رفع الصليب

تذكار النبي يونان

والرسول كدراتس

اللحن السادس

إنجيل السَحَر الرابع

الرسالة

(غلاطية ٢: ١٦–٢٠)

يا إخوةُ إذ نعلَمُ أنَّ الإنسانَ لا يُبَرَّرُ بأعمالِ الناموسِ بل إنَّما بالإيمانِ بيسوعَ المسيحِ آمنَّا نحن أيضاً بيسوعَ المسيحِ لكي نُبَرَرَ بالإيمانِ بالمسيحِ لا بأعمالِ الناموسِ إذ لا يُبرَّرُ بأعمالِ الناموسِ أحدٌ من ذوي الجَسَدِ* فإن كنَّا ونحن طالِبونَ التبريرَ بالمسيحِ وُجدنا نحن أيضاً خطأةً أفيكونُ المسيحُ إذاً خادِماً للخطيئة. حاشا* فإنّي إن عُدتُ أبني ما قد هَدَمتُ أجعَلُ نفسي متعدِّياً* مُتُّ للناموسِ لكي أحيا لله* معَ المسيحِ صُلِبتُ فأحيا لا أنا بل المسيحُ يحيا فيَّ. وما لي من الحياةِ في الجسدِ أنا أحياهُ في إيمانِ ابنِ اللهِ الذي أحبَّني وبذل نفسَهُ عنّي.

البار سلوان الآثوسي

في الرابع والعشرين من شهر أيلول تعيّد كنيستنا المقدّسة لقدّيس من عصرنا هو البار سلوان، الروسي الأصل، الذي توحّد في الجبل المقدّس ومنه أشرق على العالم بأسره لا كقدّيس وحسب بل وكمعلّم شابَه كبار معلّمي الكنيسة على مدى العصور. وقد ترك كتابات عديدة عكست اختباره الشخصي لمسار التوبة وتنقية الذات. فالروحانية ليست مادة أدبية أو فلسفية تُتناقل فكرياً بل نتاج جهاد وخلاصة حياة.

سنة ١٨٦٦ ولد أبونا البار سلوان في قرية من نواحي روسيا الوسطى لعائلة تقية ورعة من بسطاء القوم سمّته سمعان. سنة ١٨٩٢ ترك بيته وأرض آبائه إلى آثوس الجبل المقدس حيث ترهّب في دير القديس بندلايمون، متّخذاً اسم سلوان، حتى رقاده سنة ١٩٢٨. وقد أُعلنت قداسته رسمياً سنة ١٩٨٧.

لن نخوض ههنا في سيرة القديس فهي مفصّلة في السنكسار (٢٤ أيلول)، لكن لا بد من الإشارة إلى أن بين ولادته في العالم وارتحاله إلى الدير ثمة محطات انطبعت في نفسه ولعلّها ساهمت في تكوين شخصيته الروحية. في صغره لم ينل القديس سلوان من العلم إلا قليلاً جداً، ولا هو نشأ في بيئة مثقّفة بحسب مفاهيم الثقافة العالمية. لكن قلبه مال إلى الله ولم يكن بعد قد تجاوز الخامسة من العمر، وبعفوية الأطفال ابتدأت تنمو في ذهنه التساؤلات، واستمرّت وهو ينمو. كان يسمع أحاديث الفكر الإلحادي الذي كان قد بدأ ينتشر في روسيا في تلك الأيام، فكانت هذه الأفكار تزيده شوقاً إلى معرفة الله. ومن جهة أخرى كانت حياة الناس الأتقياء لا سيّما والده، وعيشهم للإنجيل، تعزّز إيمانه. في التاسعة عشرة بلغ حالة رائعة من الارتقاء الروحي وصارت الصلاة تنساب من قلبه باستمرار وبدموع حارة غالباً. دامت هذه الحالة بضعة أشهر وعادت حياة العالم وعِشرة رفاق جيله لتجذبه فزلّت قدماه مراراً، وغاب الله عن اهتمامه.

ذات ليلة، وهو نائم بعد سهرة صاخبة، حلم أنّ أفعى انسلّت من فمه إلى جوفه فأفاق على الفور مزعوجاً. إذذاك سمع صوت امرأة يقول له «هل رأيت كم قزّزك أن تبتلع أفعى في

الحلم؟ هكذا تقزّزني أفعالك». كان الصوت صوت والدة الإله. على الفور تولّد في قلب الشاب سمعان إحساس بالخطيئة عميق وتَوق إلى التوبة أكثر عمقاً. انقلب كيانه رأساً على عقب وبات لا همّ له إلا التمحّص في خطاياه والتوسّل إلى الله طالباً وسائل التوبة. بُعيد ذلك ذهب إلى إتمام خدمته العسكرية وما إن أنجزه حتى ودّع ذويه وسافر إلى الجبل المقدّس طالباً التنسّك.

قلنا أعلاه أن القدّيس سلوان لم يكن متعلّماً، بل وغالباً ما كان يصف نفسه (تواضعاً) بأنّه «بطيء الذهن قليل الذكاء». لذا، فهو لم ينشئ مؤلّفات بالمعنى التقليدي بل كان يدوّن خواطره وتأملات على وريقات وهوامش ما كان بين يديه من كُتُب، بالإضافة إلى رسائله إلى الذين كانوا يسترشدونه. هذه جمعها ابنه الروحي الأرشمندريت المغبوط صوفروني (ساخاروف) واعتنى بتنسيقها وترتيبها ضمن محاور، دون المساس بأسلوبها، ثم نشرها مع سيرة القدّيس.

لم يكتب القديس سلوان بقرار من مشيئته بل بدفع من الروح القدس: «الروح القدس ثقّفني. هكذا صرت أكتب عن الله بلا جهد... فهو من يحملني على الكتابة»، على ما يشهد القديس نفسه. لذا، فدفء الروح القدس وديناميكيته نراهما في كتابات البار سلوان يتجلّيان ببالغ البساطة والوضوح، بشكل لا بد للقارئ أن يتفاعل معهما وجدانياً فيرفعانه ويحوّلانه. يشهد من راسلوا البار سلوان أن «في رسائله قوة». ذلك أنّه، وعلى غرار معلّمه الإلهي، كان يتكلّم «كمن له سلطان». هذه القوة، الآتية أولاً وآخراً من الروح القدس، نقلها في كتابات سلوان التعبير المباشر، البسيط والواثق، تعبير من يتكلّم عن الله بقدر ما عاشره ورآه. «الذي عاين شهد، وشهادته حق، وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم» (يو ١٩: ٣٥).

من يألف كتابات القديس سلوان الآثوسي يرى بوضوح وموضوعية معادلتها لكتابات كبار من آباء الكنيسة. من هؤلاء مثلاً قديسان كبيران يُعتبران من أعمدة الروحانية الأرثوذكسية، هما الباران سمعان اللاهوتي الحديث وإسحق السرياني. صلته بالقديس سمعان كانت معاينته، هو أيضاً، المسيح حياً وما تركته فيه هذه المعاينة من أثر عميق. أما ما يجمعه بالقديس إسحق فكان ما يبديه من وافر الرحمة والحنو تجاه الخليقة بأسرها، لا تجاه الإنسان وحسب. هذا بالإضافة إلى قربه الواضح من آباء كثيرين آخرين، منهم القديم كالبار يوحنا السلّمي، ومنهم الأحدث كالبار سيرافيم ساروفسكي. كتابات القديس سلوان تشهد أيضاً لعمق تجذره في التقليد الروحاني للكنيسة الأرثوذكسية، المحفوظ في إرث الآباء القدامى، والمستمر ممارسة حية تنتقل من أب روحي إلى ابنه، دون انقطاع على مدى العصور.

لا بد من التشديد هنا على أن قرابة القديس سلوان من آباء الكنيسة لم تكن بسبب تشابه شكلي أو تكرار نظري لكتاباتهم، بل ناتجة عن خبرته الروحية العميقة المطابقة لخبراتهم. صلة القديس سلوان مع الآباء، واشتراكه معهم في الخبرة الروحية المعاشة إلى أبعد حدودها، لم تلغِ عنه شخصيته الخاصة التي نحتتها تجاربه الخاصة. في كتابات القديس سلوان شهادة وتعليم جديدان، لا لأنهما يحملان عناصر جديدة بل لأنهما يسلّطان ضوءاً جديداً على عناصر تنتمي إلى هذا المستوى أو ذاك من

الإنجيل

(مرقس ٨: ٣٤–٣٨؛ ٩:١)

قال الربُّ مَن أراد أن يتبعَني فليكفُرْ بنفسِه ويحمِلْ صليبَهُ ويتبَعْني. لأنَّ من أراد أن يخلِّص نفسَهُ يُهلكها ومَن أهلك نفسهُ من أجلي ومن أجل الإنجيلِ يخلِّصها* فإنَّه ماذا ينتَفِعُ الإنسانُ لو ربح العالَمَ كلَّهُ وخسر نفسَهُ* أم ماذا يُعطي الإنسانُ فداءً عن نفسهِ* لأنَّ مَن يستحي بي وبكلامي في هذا الجيلِ الفاسق الخاطئ يستحي به ابنُ البشر متى أتى في مجد أبيهِ مع الملائكة القديسين* وقال لهم الحقَّ أقول لكم إنَّ قوماً مِنَ القائمينَ ههنا لا يذوقونَ الموتَ حتى يَرَوا ملكوتَ اللهِ قد أتى بقوَّةٍ.

تأمل

لا يستطيع ملوك الأرض أن يقيموا من الموت أولئك الذين يُقتلون من أجلهم ولا أن يجازوهم جزاءً فائقاً. أمّا الذين يموتون في سبيل المسيح فلهم رجاء فيه ويجازيهم الرب

حياةً أبدية.

يطلب الملوك من أتباعهم أن يكونوا مستعدّين للموت من أجلهم. أمّا الرب فقد بذل نفسه للموت من أجلنا ويوصينا أن نكون مستعدّين للموت لا من أجله بل من أجلنا نحن. ولكي يبيّن ذلك يقول: «مَن أراد أن يخلّص نفسه يهلكها ومَن يهلك نفسه من أجلي ومن أجل الإنجيل فهو يخلّصها» (مرقس ٨: ٣٥) ماذا يعني ذلك: كل مَن أراد أن يخلّصها يهلكها وكل مَن أهلكها يخلّصها؟

الإنسان مزدوج: جسد في الخارج ونفس في الداخل. عندما يسلّم الإنسان الخارجي ذاته للموت، يخسر نفسه التي تنفصل عن الجسد. إن كان قد خسرها من أجل المسيح ومن أجل الإنجيل، في الواقع يكون قد ربحها للحياة الأبدية. يتسلّمها في القيامة ويظهر عن طريقها سماوياً أزلياً حتى في جسده أيضاً.

أما محبّ الشهوة الذي هو غير مستعدّ أن يخسر حياته لأنه يحبّ هذا الدهر العابر والأمور العالمية، الخبرة الروحية المشتركة للقديسين. بكلام آخر نقول إن القديس سلوان حمل، بحسب تقليد الكنيسة، عناوين النعمة التي خصّه الله بها فأتى تعليمه إذناك جديداً. لعلّ في هذا شهادة على قول الربّ يسوع «من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي» (يوحنا ٧: ٣٨)، والماء الحي متجدّد على الدوام دون أي تبدّل في جوهره.

همّان أساسيان ما بارحا القديس طيلة حياته الجهادية: رحمة الله ومحبته تجاه كل البشر على الإطلاق (وهو ما اختبره القديس شخصياً وبعمق)، ومساهته هو، على قدر طاقته، في خلاص الكل. في هذا السياق حسنٌ أن نورد هاتين الحادثتين: في إحدى الأمسيات، وبينما كان القديس يتمشى وأحد رهبان الدير، قال رفيقه: أتمنّى أن يعاقب الله كل الكفار والأشرار غير التائبين في نار جهنّم. انتفض القديس وقال له كيف لك أن تتمنّى شيئاً كهذا! فأجاب ذاك وقال أوليس هذا ما جنوه على أنفسهم؟ فقال القديس والحزن يملأه: لا يا أخي، المحبة لا تقبل هذا.. ليس من إنسان على الإطلاق لا يستحقّ أن نصلّي من أجله... مرة أخرى كان القديس وبعض الرهبان يتكلّمون عن بهاء الملكوت وجمال الفردوس، وفجأة صمت القديس وبدت على وجهه امارات الحزن، وأدمع. فسأله أحد الرهبان «كيف لك أن تحزن يا أخي، ونحن نتكلّم عن الفردوس؟» فأجاب القدّيس وقال «لا أستطيع أن أتصوّر نفسي أنعم في الفردوس وواحد من الناس يتعذّب في الجحيم».

التطويبات

التطويبات هي مجموعة الآيات التي تفوّه بها الرب يسوع، وكل آية تبتدئ بعبارة «طوبى» أي «مغبوط»: «طوبى للمساكين بالروح... للحزانى... للودعاء... للجياع والعطاش إلى البر... للرحماء... للأنقياء القلب... لصانعي السلام... للمطرودين من أجل البر...» (متى ٥: ٣-١٢). وقد رتّبها الإنجيلي متى ووضعها في مطلع ما يُعرف بالعظة على الجبل. هذه العظة التي تشكّل قانون حياة المسيحي المؤمن الذي يسعى إلى أن يكون من أبناء الملكوت.

لقد أوضح الرب يسوع في هذه الآيات ـ التطويبات ـ طريقة عيشنا مع العالم والآخرين. فهي تختصر بإحكام طريقة الحياة في المسيح، لا بل هي تضع أمامنا، إلى جانب البركات التي سننالها، صورة المسيح نفسه: الوديع، الرحيم، صانع السلام، الساعي إلى البر والحق، المُضطَهد لأجل كلمة الله، والمعيَّر والمطرود الذي تحمَّل كلام الأشرار عليه. لذا فإن هذه التطويبات مرشدتنا في حياتنا في المسيح. إنها تعرض لنا البركات والنِعَم التي سننالها، والأهم أننا سننال ملكوت السموات إن جاهدنا لأجل المسيح والتصقنا به.

أن نحفظ التطويبات في حياتنا يعني أن نسير يداً بيد مع المسيح، نتبع خطاه، نحمل معه الصليب، نسير في الطريق الضيق الذي يصعدنا إلى فوق، نحس بالمسامير تنخر لحمنا، وأن نموت عن أمور هذا العالم لنقوم ثانية في المجد الأبدي.

مَن هم المساكين بالروح أو الفقراء بالروح؟ إنهم الذين يعرفون يقيناً ان كل شيء يملكونه، بما فيه حياتهم ووجودهم، هو ليس مُلكهم بل مُنح لهم من الله. المساكين

بالروح يعرفون انهم لا يملكون شيئاً، ولا يستطيعون فعل شيء دون معونة الله الدائمة لهم، وهو يمنحهم السلطة. كل ما لدينا هو بنعمة الله ونحن أمناء عليه. الذين يعون هذا يسبّحون الله بتواضع، ولا يسيئون استعمال النِعَم الثمينة التي ائتُمنوا عليها.

الحزانى والباكون هم ليسوا فقط الباكون على فقدان الأحباء والأصدقاء، بل أيضاً الباكون حزناً على حالتهم الساقطة. يذرفون الدموع من أعماق قلوبهم لأنهم واعون للهوة السحيقة بين البشرية الساقطة والإله الحي، وللشرخ الحاصل بينهما ونتائجه الكارثية. يبكون خطاياهم وخطايا العالم الساقط، ويطلبون رحمة الله ومحبته ورأفته وتفهُّمه لأنه الآب الرحيم. والذين يحزنون ويبكون بهذا المعنى سوف يجدون السلام والراحة والتعزية. والودعاء كما كان المسيح وديعاً، الذين لا يتباهون بكبرياء زائف ولا يرفعون أنفسهم أعلى من إخوتهم البشر، هؤلاء الودعاء سوف يرثون كل غنى الملكوت. فالتواضع هو أم الفضائل على ما يقول القديس إسحق السرياني. أما الذين يجوعون ويعطشون إلى البر، أي الذين رتّبوا حياتهم في سعي دائم وراء الله ومحبته وخدمته، في الصلاة والصوم والقيام بالأعمال الحسنة لأجل اسمه، في حفظ وصاياه، هؤلاء مباركون وسوف يمنحهم الرب كل خير من لدنه.

«طوبى للرحماء»: أن يكون الإنسان مغبّطاً لأنه رحوم، فذلك لأنه يتشبّه بالآب السماوي. فالرب يسوع دعانا أن «كونوا رحماء كما أن أباكم أيضاً رحيم» (لو ٦: ٣٦).

هذه كتبها الإنجيلي لوقا بعدما سرد عدداً كبيراً من الوصايا، أما الإنجيلي متى فيُنهي هذه الوصايا في العظة على الجبل بعبارة: «كونوا أنتم كاملين كما ان أباكم الذي في السموات هو كامل» (٥: ٤٨). الكمال مرادف للرحمة حسب الإنجيليين.

الأنقياء القلب هم المتفانون لأجل الله، الذين يستدعون حضور الله في قلوبهم إذ يسلّمون ذواتهم كلها لمحبته ورحمته. بتسليمهم ذواتهم لله يحوونه في داخلهم وهم في داخل الله، وبالتالي فهم يعاينون الله ويعرفونه في إلفة ومودة لا توصفان.

هكذا أيضاً، مغبوطون هم المضطهدون من أجل محبتهم لله وكلمته، الذين يتحملون بصبر الآلام والاضطهاد والموت من أجل خدمة ملكوت الله، ولكي يصير هذا الملكوت واقعاً بين البشر. لذا مغبوطون هم صانعو السلام، لأن السلام والمصالحة والمسامحة تجسّد الملكوت منذ الآن على الأرض. المسيحي يضع نصب عينيه الهدف الذي سيصل إليه: الملكوت. لكن هذا الهدف سوف يكلّف المؤمن غالياً: اضطهاداً، طرداً، تعييراً، أوجاعاً وآلاماً. هكذا فعلوا بالرب يسوع، لكن بسبب طاعة الرب وتحمّله كل شيء صارت «تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء وممن على الأرض وممن تحت الأرض. ويعترف كل لسان ان يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب» (في ٢: ١٠-١١).

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb

هذا سوف يهلك نفسه لأنه يحرمها الحياة الحقيقية ويخسرها مسلّماً إياها ويا للأسف إلى الهلاك الأبدي معه. لذلك يرثي له السيّد مبيّناً عظمة الألم.

«لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه أو ماذا يعطي الإنسان فداءً عن نفسه؟» (مر ٨: ٣٦-٣٧) لأنّه لن ينزل مجده معه، كما ولن تتبعه ملذّات هذا الدهر كلّها التي فضّلها على الموت من أجل المسيح. وماذا يجد بدلاً عن نفسه التي لا تعادل العالم كلّه في قيمتها؟

لو كان باستطاعة الإنسان أن يربح العالم كلّه، أيها الإخوة، فإنه لا يستفيد شيئاً بل يكون قد خسر نفسه. لاحظوا ما أشرّ موقف الإنسان الذي يكون مستعداً لخسارة نفسه أبدياً من أجل الحصول على تعزية بشرية وقتية طفيفة، لأنه لا يريد أن يحمل رمز الصليب وكلام الرب، ويتبع معطي الحياة.

القديس غريغوريوس بالاماس